اتفق العرب على أن لا يتفقوا". مثل يقال و نسمعه دائما و ليس بين الحين و الآخر. و نراه اليوم مثلما رآه السابقون ، و من يريد التأكد من ذلك فليراجع الكتب التاريخية العربية و لينظر ما حصل للعرب على مر التاريخ. و ليست الدول التي تكوّن ما نسميها بخيال ووهم بـ"العالم العربي" أو "الوطن العربي" ، فقط ، تعطي لنا التأكيد للمثل المذكور ، بنزاعاتها المستمرة فيما بينها أو مع جيرانها ، بل أن المجموعات التي تشكل كل دولة عربية على حدة نراها تتناحر فيما بينها ، سواء كانت هذه المجموعات تنتمي إلى مذاهب أو أديان مختلفة أو تعتقد و تؤمن بنفس العقيدة و الدين. و ما نشاهد اليوم على أرض العراق من التصارع و الاغتيالات بين ما سموا أنفسهم بالمسلمين بشكل عام ، او ما تسموا بالشيعة أو بالسنة بشكل خاص ، يؤكد أيضا ما يريد العرب الاتفاق عليه : عدم الاتفاق. و الحقيقة أن السبب الرئيسي لعدم الاتفاق هو أن كل فرد عربي يريد أن يطبق ما يقوله المثل العربي : "الامارة حتى و لو كانت على الحجارة" أو ما يقوله المثل الأسباني : "راس فأر و لا ذيل أسد".

العقلية العربية - قراءة في كتاب د. جواد علي

محيي هادي

و قد كتب الكاتب العراقي الدكتور جواد علي في كتابه "المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام"، ذي الأجزاء الأربعة، فصلا كاملا عن عقلية العرب قبل الاسلام. و على الرغم من أن الكاتب حاول أن يبين هذه العقلية لعرب ما قبل الاسلام إلا أنني أرى أن هذه العقلية لا زالت مستمرة لحد الآن في أدمغة العرب المعاصرين، ما بعد الاسلام. و بهذا لا أريد أن يفهم القارئ أن هذه العقلية توجد فقط في المسلمين، بل أنها موجودة في من يعتنقون ديانات ثانية، يعيشون في الدول العربية. كما و أؤكد أن الغالبية العظمى من العراقيين و العرب الآخرين و المسلمين، و على الرغم من هجرتهم الى بلدان متحضرة، لا يزالون يحملون الأفعال و الافكار التي انهزموا منها عندما كانوا في بلدانهم. فلطميات الشيعة و سرقات المغاربة تنشر في مختلف البلدان المتحضرة.

لقد كتب الكاتب العراقي الدكتور جواد علي أن بعض العلماء والكتاب المحدثين في العقلية العربية تكلموا عنها "بصورة عامة، بدوية وحضرية، جاهلية وإسلامية. فجاء تعميمهم هذا مغلوطاً وجاءت أحكامهم في الغالب خاطئة. وقد كان عليهم التمييز بين العرب الجاهليين والعرب الإسلاميين، وبين الأعراب والعرب، والتفريق بين سكان البواطن، أي بواطن البوادي، وسكان الأرياف وسكان أسياف بلاد الحضارة. ثم كان عليهم البحث عن العوامل والأسباب التي جعلت العرب من النوعين: أهل الوبر وأهل الحضر، تلك الجبلة، من عوامل إقليمية وعوامل طبيعية أثرت فيهم، فطبعتهم بطابع خاص، ميزهم عن غيرهم من الناس".

و إذا كان جواد علي محقا في أن هناك فرقا بين هذا و ذاك من العرب، إلا أن هذا الفرق هو فرق محلي خاص و محدد، أما في الخواص العامة فلا أرى أنه يوجد فرق، و الحاضر و التاريخ يؤكدان ذلك.

والرغبة الذاتية بأن تتغير السلبيات في المجتمعات العربية هي رغبة لا غير، و أن ما يراه الواحد منا بأنه سلبي يكون إيجابيا عند الآخر. فالسرقة هي فعل بذئ و إجرامي في قرآن المسلمين إذ تقطع يد السارق و السارقة، أما عند عرب الارياف و البدو و آخرين من العرب فهو رجولة و بطولة، و معروف المثل العراقي: "الرجال هو اللي يخلي العنب بالسلة"، مهما كان هذا العنب و مهما كانت الطريقة و السلة لوضعه، و أن الموت الطبيعي هو فطيسة مخزية، أما الموت مقتولا في عملية سطو أو غزو شهادة مرضية. و القتل على الشبهة لا يزال فاعلا في المجتمعات العربية. و عسى أن يأتي يوم لكي أستطيع فيه أن أغير هذا الرأي.

و على الرغم من أن د. جواد علي يحاول إلقاء غالبية السلبيات على الأعراب البدو، إلا أنني أرى ذلك إجحافا ضد البدو لصالح العرب الآخرين فإن عربي المدينة له أفعال أشنع و أفظع من البدوي.

رأي التوراة في العرب

و ذكر جواد علي ما تقوله التوراة في أوصاف العرب، إذ تقول:

١) إنهم متنابذون يغزون بعضهم بعضا.

٢) مقاتلون يقاتلون غيرهم كما يقاتلون بعضهم بعضاً، فواحدهم "يده على الكل، ويد الكل عليه".

٣) يغيرون على القوافل فيسلبونها ويأخذون أصحابها اسرى، يبيعونهم في أسواق النخاسة، أو يسترقونهم فيتخذونهم خدماً ورقيقاً يقومون بما يؤمرون به من أعمال.

٤) غير ذلك من نعوت وصفات.

ثم يقول جواد علي: "والعرب في التوراة، هم الأعراب، أي سكان البوادي، لذلك فإن النعوت الواردة فيها عنهم، هي نعوت لأعراب البادية، الذين لم تكن صلاتهم حسنة بالعبرانيين."

فهل هذا صحيح؟ و لكن العبودية و الاسترقاق هما فعلان لا يقوم بهما الاعراب فقط، بل هما لايزالان موجودان في الاسلام لحد الآن و لم ينسخ فعلهما القرآن بعد، و لا الانجيل و لا التوراة. إلا أن المجتمعات المتحضرة غير الاسلامية، في الوقت الحاضر، قد أكدت على أن العبودية و الاسترقاق معرضان لملاحقة القانون، على العكس تماما من المجتمعات الاسلامية.

راي اليونان و الرومان

وفي كتب اليونان والرومان والأناجيل، نعوت أيضا نعت بها العرب وأوصاف وصفوا بها مثلما وصفهم التوراة، فهم:

١) كانوا يغيرون على حدود إمبراطوريتي الرومان واليونان.

٢) سلابة، يسلبون القوافل.

٣) يأخذون الإتاوات من التجار والمسافرين وأصحاب القوافل للسماح لهم بالمرور.

و ذكر جواد علي أن "ديودور س الصقلي" وصف العرب بأنهم:

١) يعشقون الحرية، فيلتحفون السماء.

٢) اختاروا الإقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء، فلا يستطيع العدو المغامر الذي يريد الإيقاع بهم أن يجد له فيها مأوى.

٣) انهم لا يزرعون حباً، ولا يغرسون شجراً، ولا يشربون خمراً، ولا يبنون بيوتاً.

٤) الذي يخالف العرف يقتل.

و أعتقد أن الصقلي قد أخطأ عندما قال أن العرب لا يشربون الخمر، فأشعار العرب قبل الاسلام و بعده تعاكس رأيه. و لكنه محق في أن العرب لايزرعون و لا يغرسون و لا يبنون، فهم كسلة لا يحبون العمل بل يعتمدون اعتمادا كبيرا على تعب الغير، فهكذا تراهم اليوم لا يعتمدون إلا على ما تنجبه الارض من ثروات كالبترول، و على ما تصنعه شعوب أخرى. و في العراق، مثلا، ينظر إلى مزارع الخضروات نظرة استحقار و ينعتونه بال "الحساوي" لان زراعة الخضروات هي زارعة متعبة و تحتاج للعناية المستمرة. و لا أكون مبالغا إذا قلت أن العرب في أسفل السلم الحضاري و سيبقون إذا استمروا على هذه العقلية، فلا صناعة و لا زراعة متطورة و لا علم و لا هم يحزنون.

ولا يزال العربي الصريح ينظر إلى الحرف والمهن نظرة ازدراء، وإلى المشتغل بها نظره احتقار وعدم تقدير.
رأي ابن خلدون

> **لقد كتب الكاتب العراقي الدكتور جواد علي أن بعض العلماء والكتاب المحدثين في العقلية العربية تكلموا عنها "بصورة عامة ، بدوية وحضرية ، جاهلية وإسلامية. فجاء تعميمهم هذا مغلوطاً وجاءت أحكامهم في الغالب خاطئة.**

ولابن خلدون رأي معروف في العرب، خلاصته:

١) إن العربي متوحش نهّاب سلاّب.

٢) إذا أخضع مملكة أسرع إليها الخراب.

٣) يصعب انقياده لرئيس.

٤) لا يجيد صناعة ولا يحسن علماً ولا عنده استعداد للإجادة فيهما.

٥) سليم الطباع، مستعد للخير شجاع.

أظن أن في هذه النقطة وجود تعبير دبلوماسي لابن خلدون!

وتجد آراء ابن خلدون هذه مدوّنة في مقدمته الشهيرة لكتابه العام في التاريخ.

راي المستشرقين

وقد رمى بعض المستشرقين العرب بالمادية وبصفات أخرى، هكذا كتب جواد علي، فقال "أوليري": " إن العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً، مادي، ينظر إلى الأشياء نظرة مادية وضيعة، ولا يقومها إلا بحسب ما تنتج من نفع، يتملك الطمع مشاعره، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف، لا يميل كثيراً إلى دين، ولا يكترث بشيء إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته و قائده في الحروب الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ولو كان صديقاً حميما له من قبل، ممن أحسن إليه كان موضع نقمته، لأن الإحسان يثير فيه شعوراً بالخضوع وضعف المنزلة وأن عليه واجبا لمن أحسن."

ونقل جواد علي عن لامانس "إن العربي نموذج الديمقراطية"، ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها إلى حد بعيد، وإن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحدد من حريته، ولو كانت في مصلحته، هي السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء في تأريخ العرب، وجهل هذا السر هو الذي قاد الأوروبيين في أيامنا هذه إلى كثير من الأخطاء، وحملهم كثيراً من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها، وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هي التي تحول بينهم وبين سيرهم في سبيل الحضارة الغربية، ويبلغ حب العربي لحريته مبلغاً كبيرا، حتى إذا حاولت ان تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حريته. ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص، مطيع لتقاليد قبيلته، كريم يؤدي واجبات الضيافة والمحالفة في الحروب كما يؤدي واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها بحسب ما رسمه العرف."

ويوافق المستشرق "براون" "أولري" في رمي العرب بالمادية المفرطة. ورماهم "أوليري" أيضا بضعف الخيال وجمود العواطف.ى أما "دوزي" فقد رأى أن بين العرب اختلافاً في العقلية وفي النفسية، وأن القحطانيين يختلفون في النفسية عن نفسية العدنانيين.

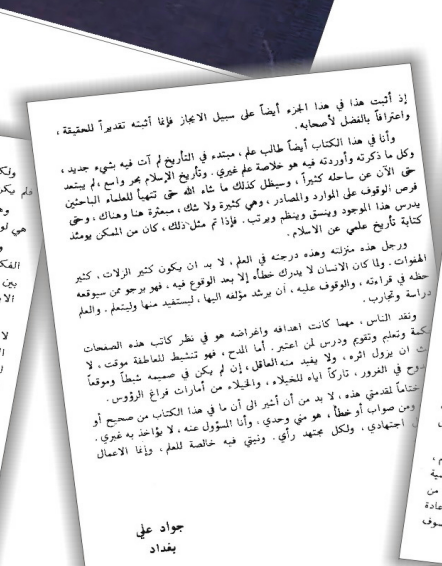

العدد (1309) السبت (30) اب 2008
No. (1309) Sat. (30) Aug 2008

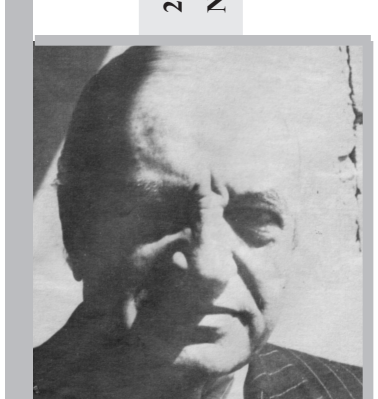

جواد علي